

وصيّة الشيخ منصور

حمادة حامد محمود نور الدين

حين ظهرت الجلابية الملطّخة بالدم على باب دوّار العمدة، عرف أهل نجع الدير أنّ الثأر عاد بعد ثلاثين سنة.

كان ذلك في ليلةٍ من ليالي الشتاء قرب مدينة قنا، والبرد يعضّ العظام، والقمر معلّقٌ فوق حقول القصب كأنّه جرحٌ أبيض. وقف الناس في دائرةٍ صامتة حول الجلباب. بقعةٌ داكنة واسعة على الصدر، وقد غُرس في كمّه سكّينٌ صغير بمقبضٍ من قرن الجاموس.

همس أحدهم: «سكّين آل الهوّاري».

وسمعت الجملة امرأةٌ عجوز، فشهقت وانسلّت إلى الظلام. فقد كان الجميع يعرف أنّ بين آل الهوّاري وآل أبو سريع بئرًا وقتيلًا ودمًا لم يجفّ منذ سنة ١٩٩٤، حين قُتل الشيخ منصور أبو سريع على حافّة البئر القديم، ولم يعرف أحدٌ قاتله. ثم صالح الكبار الفريقين بعد سنواتٍ طويلة، وتصافحوا في مجلس صلح، لكنّ الجراح لا تُشفى بالمصافحة.

وقف يونس أبو سريع، حفيد الشيخ منصور، وسط الدائرة. كان في الخامسة والعشرين، قصيرًا قويًّا، تعلّم في القاهرة وعاد ليعمل

مدرّسًا في مدرسة النجع. نظر إلى الجلباب طويلًا ثم قال بصوتٍ هادئ يرتجف: «هذه جلابية جدّي».

ساد صمتٌ كأنّ الأرض ابتلعت الأصوات.

«جدّك مدفونٌ منذ ثلاثين سنة، يا ولدي»، قال العمدة بصوتٍ مخنوق. «من أين أتت؟»

«لا أعرف»، قال يونس. «لكنّني أعرفها. هذه الرقعة عند الكتف خاطتها جدّتي بيدها. وهذا الخيط الأحمر عند الياقة...»

ولم يُكمل. كان الرجال يتبادلون النظرات. وكان في عيون شبّان آل أبو سريع شيءٌ يلمع. لم تكن دموعًا.

وقبل أن يغادر الدوّار، لحق به ابن عمّه عادل، وفي يده عصا غليظة، وعيناه حمراوان من الغضب. «تذهب إلى بيتك وتنام؟ الجلابية جاءتنا لنرى ما يُراد منّا يا يونس. يريدون أن نسكت كما سكتنا ثلاثين سنة».

«ومن هم؟»

«آل الهوّاري. من غيرهم؟»

نظر يونس إلى ابن عمّه وقال: «لو كانوا هم، لما تركوا السكّين في الكمّ بهذه الطريقة. القاتل لا يوقّع باسمه على جريمته، يا عادل. هناك من يريد أن نظنّ أنّه هم».

«وأنت تعتقد هذا لأنّك تعلّمت في القاهرة!»، صاح عادل. «في النجع، الدم لا يُسأل عنه، الدم يُردّ!»

أمسك يونس بذراعه، بقوّةٍ لم يعهدها فيه أحد. «أعطني ثلاثة أيّام. فقط ثلاثة. وإن لم أجد الحقيقة فافعل ما تشاء».

صمت عادل طويلًا، ثم رمى العصا على الأرض ومضى. ولم يعرف يونس أنّ الأيّام الثلاثة سوف تُختصر إلى ليلةٍ واحدة.

في تلك الليلة، سار يونس وحده إلى بيت جدّته الحاجّة صفيّة، التي بلغت التسعين ولا تغادر سريرها. وجدها جالسةً تنتظره، كأنّها علمت بما حدث. قالت قبل أن يتكلّم: «جاءتك الجلابية؟»

«كيف عرفتِ يا جدّتي؟»

«لأنّ جدّك أوصاني: إذا جاءت الجلابية الملطّخة مرّةً أخرى، فهذا يعني أنّ الأوان قد حان لتفتح الصندوق».

«أيّ صندوق؟»

«الصندوق الذي في بئر الدار». ثم مدّت يدها المعروقة وأمسكت معصمه. «ولكن اسمع يا يونس. لا تفتحه إلا إذا وعدتني بأمر. أنّك لن تُسيل دمًا مهما قرأتَ بداخله».

تردّد يونس. كان قلبه يضرب. «أعدك».

في فجر اليوم التالي، نزل يونس إلى البئر القديمة بحبلٍ وفانوس، فوجد في جدارها الحجريّ فجوةً صغيرة، وفيها صندوقٌ خشبيّ ملفوف بقماشٍ مشمّع. فتحه على حافّة البئر، والريح الباردة تعبث بشعره. في الصندوق ثلاثة أشياء: خنجرٌ مكسور، وخطابٌ مطويّ، وصورةٌ قديمة لشابّين يضحكان معًا ويحمل كلّ منهما بندقيّة صيدٍ وأرنبًا.

عرف أحد الشابّين على الفور: جدّه منصور. أمّا الثاني فكان وجهه مألوفًا بصورةٍ مؤلمة. إنّه الحاجّ سيّد الهوّاري، شيخ آل الهوّاري،

الذي صافحه يونس في العزاء قبل شهرين.

تذكّر وهو ينظر إلى الصورة ما كانت تحكيه جدّته: في ليلة مقتل جدّه عام ١٩٩٤ لم يعد منصور من البئر، وحين ذهبوا إليه وجدوه على حافّتها وفي يده قطعةٌ من قماش. ولم يفهم أحدٌ حينها لماذا كان وجهه، رغم الجرح، مطمئنًّا كأنّه أنهى شيئًا عظيمًا.

فتح الخطاب بيدين ترتجفان. كان بخطّ جدّه:

«إلى من يجد هذا الصندوق. أنا منصور أبو سريع، وأكتب وأنا أعلم أنّني لن أعيش حتى الصباح. سيقولون إنّ سيّد الهوّاري قتلني. لا تصدّقوهم. سيّد أخي في الرضاعة وصاحب عمري. من قتلني رجلٌ آخر، وسأكتب اسمه هنا، لكن اقرأ أوّلًا لماذا أكتبه: لأنّ البئر كانت لنا ولهم معًا، وأراد رجلٌ أن يحوّل الخصام إلى ثأرٍ ليشتري الأرض بثمن بخس بعد أن يفنى الطرفان. وقد نجح. فإن أردتَ الحقّ حقًّا فلا تنتقم بالدم، بل بالحقيقة».

توقّف يونس. أمعن النظر في السطر التالي، ثم قرأ الاسم، وشعر بأنّ الأرض تميد تحت قدميه.

كان الاسم هو اسم العمدة نفسه. ذلك الذي وقف بالأمس ينظر إلى الجلباب بوجهٍ شاحب ويسأله: «من أين أتت؟»

وحين رفع رأسه من الورقة، وجد ظلّين على حافّة البئر. كان العمدة واقفًا فوقه، وفي يده بندقية. وكان خلفه ثلاثةٌ من رجاله.

«كنتُ أعلم أنّ الجدّة ستخبرك»، قال العمدة بهدوء. «ثلاثون سنة وأنا أخشى هذا اليوم. أعطني الخطاب يا ابني، وانسَ ما قرأت، وسأعطيك أرضًا تعيش عليها».

نظر يونس إلى فوهة البندقية. ثم إلى السماء، حيث بدأ الفجر يلوّن الأفق. وتذكّر الوعد الذي قطعه لجدّته. لا دم.

«لن أسلّمك الخطاب»، قال بصوتٍ ثابت لم يعرف من أين جاء. «لكنّي لن أرفع يدي عليك. لقد أرسلت الجلباب أنت، أليس كذلك؟ كنتَ تريد أن يعود الثأر، لأنّ الشيخ سيّد جمع أهل البلد على صلحٍ سيكشف الأرض التي اشتريتَها بالغدر».

ارتجف وجه العمدة. وفي تلك اللحظة، سُمع صوتٌ من خلفه: «ألقِ سلاحك يا عمدة».

استدار الجميع. وقف على الطريق الترابيّ رجلٌ عجوز على عكّازين، يحيط به عشرات الرجال من آل الهوّاري وآل أبو سريع معًا، وقد حملوا المصابيح والعصيّ. وكان في المقدّمة الحاجّ سيّد الهوّاري نفسه.

«كنتُ أبحث عن هذه الحقيقة ثلاثين سنة»، قال بصوتٍ مبحوح. «ولم أكن أعلم أنّ منصور تركها لنا في البئر التي شربنا منها معًا».

حين سقطت البندقية من يد العمدة، لم يطلق أحدٌ طلقة. نزل الحاجّ سيّد درجات البئر ببطء، ودون كلمة، عانق يونس. وبكى الاثنان فوق الصندوق.

في المساء، أُقيم في النجع أكبر مجلس صلحٍ رآه أحد. وقرأ الشيخ الخطاب بصوتٍ عالٍ أمام الجميع، ثم دفن الرجلان السكّين المكسور في الأرض بجانب البئر، وكتب يونس على الحجر فوقه جملةً واحدة اختارتها جدّته:

«الدم يطلب دمًا، أمّا الحقيقة فتطلب شاهدًا واحدًا فقط يجرؤ أن يقولها».

وحين عاد إلى بيت جدّته في ساعةٍ متأخّرة، وجدها قد غادرت الدنيا بسلام، ويدها على صدرها، وعلى شفتيها شبح ابتسامة. وتحت وسادتها، وجد يونس رقعةً صغيرة من القماش المطرّز بالخيط الأحمر، الخيط ذاته الذي عند ياقة الجلابية. عرف حينها من الذي وضع الجلباب على باب العمدة تلك الليلة: لم تكن يدًا قاتلة، بل يدَ امرأةٍ صبرت ثلاثين سنة حتى تأتي اللحظة المناسبة، وتُخرج الحقّ من البئر.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app